شعر
٤

المزيد من موت العسل

أحمد دحبور

١- فراشة بين قوسين
تحت رجليَّ هُوَّةٌ وهواءُ
ويدي كِسْرةٌ،
كأنّ جداراً من جرادٍ يحدُّ من أمل القمحِ،
كأني فراشةٌ بين قوسَيْنِ،
أمامي الضياءُ،
خلفي الرجاءُ
إنّ هذا الذي يموتُ، الفضاءُ
فلماذا أنا؟
أليس لهذي النار والجائحات من عملٍ غَيْري؟
فَطَيْري مطلوبة وهي في البيضِ،
وحبل الهواء يدنو ويرتدُّ،

أحمد دحبور، شاعر فلسطيني – غزة

فأحتدُّ –
لا سقوطٌ فأهوي،
لا صعودٌ،
وليس إلا الهباءُ ؟

صحتُ: هَبْني أن أقطع الحبلَ،
– حتى اليأسُ لا تستحقُّهُ،
– فلماذا ؟ أين أخطأتُ؟
هل سريري ضريحٌ؟
أم جميع الذي يدبُّ صحيحٌ،
وأنا الآن وحديَ الأخطاءُ؟

نَقّلَ الظلُّ، فافترى
عن غرابٍ، عمّا أرى:
خطأً كلٌّ من صَعَدْ
خطأ أنني أقيسْ
خطأ أنه الأحدْ
خطأ أنه الخميسْ
يرجع اليوم قهقرى
فإذا الأمس كالأبدْ
والنفاياتُ كالنفيسْ

كل هذا الضباب من أجل نَيْزَكْ؟
القتامُ، الظلامُ، والرعدُ، والصاروخُ،
والعابراتُ،
والغاز غازٍ يطأ الأرض والفضاءَ،
ويعطي،
فرصةً للنهارِ: متْ أو تحرَّكْ

– فإذا قلتُ لا ونَفَرْتُ؟
– لا جوابٌ وليس للموت وقتُ

كلُّ هذا الضباب من أجل نيزكْ؟

خَبَرُ الأمس مُطْلقٌ،
فانحنِ الآنَ، وكل الزمان هذي الفلاةْ
أَقْبَلوا، أفرَغوا الفضاءَ من الشمسِ،
ودبَّ الفراغُ في الظلِّ،
مات الحبرُ،
فاقرأ ما تكتب المحاةْ

كلُّ هذا الضباب من أجل نيزكْ؟

لم يسلِّمْ بعتمة الأمس،
فيما سلَّمْتهُ السَّموم للنفيِ،
حتى فقسَتْ بيضةُ الغرابِ على اليأسِ،
ويغفو المدى فيهوي عليه السقفُ،
ماذا؟ هل فرَّحَ الموتَ موتُ؟
يا إلهي، فليُسْمِع الأرضَ صوتُ

صَممٌ في الصميمِ،
والحبل خطٌّ من هواءٍ،
فمن به يتمسَّكْ؟

غير أني لا عودةٌ، لا ندامهْ
لقد اخترتُ، فانكسرتُ، فقوَّمتُ جناحي،
قَطرْتُ،
فما معنى جراحي إن متُّ أو إن نَجَوْتُ؟
ليس ما أبتغيه طير السلامهْ
بل أضيء النهارَ،
للنهر مجراهُ،
وللعابر المغامر مَسْلَكْ
ألهذا تلبّد الجوّ بالسمِّ،
ولاحتْ أوصافُ يوم القيامهْ؟

نيزكٌ لاحَ،
فالضبابُ تولّى أن يكون الظلامُ لا الغيمُ،
سقفاً وجداراً،

والرعدُ أعطى العلامهْ

كل هذا الغراب من أجل نيزكْ؟

غزة – ٢٠٠٣

٢- السلحفاة
يلزمني ألف يوم
لأقطع المسافة بين هذا الباب والشارع
ولكي أحرز معجزة الوصول إلى الباب،
فإنني أتجرّع خروع الرتابة وخردل النميمة
وأشفق على الظهر المنحني في الرسمة المقابلة
ينشقُّ الجدار عن دبابة
والدبّابة عن ذبابة
وفيما ترشح لسعة المطر من الشقوق،
أسأل قهوتي الباردة:
منذ كم حُرمنا من الدهشة؟

يلزمني ألف يوم جديدْ
لأصغر خمسين عاماً
وماذا لو تحققت المعجزة
فانكمشتْ ثيابي وخرجتُ حافياً؟
هل سأهرب من المدرسةِ،
أم أتهرَّب من واجب ابتلاع زيت السمكِ،
أم آوي إلى مدينة من تأليف أمي وتلحينها،
أم أخطط لأصل إلى باب هذه الحجرة
بهندام مناسب وذاكرة مطواعة؟

يلزمني ألف يوم من أي نوع
حتى يقنعني شو بنهاور
بأن العالم هو ما أمثله أنا فيه
وساعتها سأضحك حتى أنكفئ
فهل العالم بعد كل ما تقدم
هو هذا المكان الموحش المدلهمّ؟

تلزمني أيام بلا حساب
حتى أكون لازماً لأي شيء أو أحد
وعندما يطلع دخان الشبّيك لبيك من الزجاج
لن أملك ترف الحيرة، بل سأطلبُ
أن أنسى؟
كيف وما كان، كان مني؟
أن أمحو؟
ومن أين العزيمة لأكتب البديل؟
أن أسحب النهر من البئر؟
ولكن أليس النهر كلاماً،
تماماً كما هي البئر كلام؟
أفلا أسند ظهري إلى الحائط
وأغفل عن الظَّهر المنحني في الرسمة المقابلة
مغمضاً عينيّ حاسباً على أصابعي،
منهمكاً في حل الكلمات المتقاطعة؟

يلزمني أن يلزمني ألف يوم
حتى أرشِّد السأمْ
وأروّض اللامبالاة
فأنشط، في ساعتي، سلحفاةَ الزمن
إذ لا بدّ من الاعتراف بالثواني والدقائق
بدل حساب العمر بالمواسم والمصحّات

وفيما تطنّ الذبابة في رأسي
أتململُ وأسألُ:
منذ كم خسرتُ حاسة الموسيقى؟

غزة - الخميس ٢٠٠٣/١٢/٤

٣- حرام
يئنُّ، تحت الحديدة، الشجرُ
الشجر المستباح يُحتضَرُ

تمزَّقَ اللبُّ،
يا لقلبكَ من مجرّحٍ راعفٍ،
ونسْغكَ من ذبيحةٍ،
يا حرامُ يا ثَمرُ!

سعادةُ العسكريِّ،
تطفح من منشاره الكهربيِّ،
والشرَرُ
يكبِّدُ العشبَ أمْنَ ذاكرةٍ من الندى،
فالأوراقُ بيتُ ردى،
والحقل يستدرج الطيور سُدى،
جنازة.. والفروع تنكسرُ

لا تذبحوا الأرضَ،
صاح وانتشَرَ القنباز في الطينِ،
صاح وانتحب الهواءُ،
في عقدةٍ من القصبِ
لا تذبحوها،
وليس ثمَّ صدى،
إلا أزيز المنشار في الخشبِ

هذي التي يذبحونها،
وُلدتْ من بذرةٍ في يديهِ،
وامتلأتْ بجرحه،
وانتشَتْ بأغنيةٍ من روحهِ،
فهي نَبْتةُ العجَبِ
هذي التي يذبحونَها،
مَنعَتْ أن ينحرَ الوردَ سارقُ التُرَبِ
من يمسك الريح وهي تنتشرُ؟
من يمسك البرقَ،
وهو يخطف من أبصارنا نارنا بلا سببِ؟
من يسمع الرعد وهو ينفجرُ
بالسرِّ ملء الأسماع والعصبِ:
الشجر المستباح يحتضرُ

وما هنا من يُجبرُ،
أو يضع الدنيا أمام الدخان واللهبِ؟
هل استفاق التراب والحجرُ
ليدركا أنّ كل مذبحة في الأرض تقتصُّ منهما ؟
فعلى الرصيف والزرع من دمٍ أثَرُ؟
جنازة في الرياح،
والقمر الحزين لا هالة تضيءُ،
ولا نور الشذا يستقلُّ مركبةً من الندى،
فالغصون أضلعُ يومٍ عاثرٍ،
تشتكي من العطَبِ

كأنكم تقصفون عمر أبي
كأنكم..
يا حرامُ يا ثمرُ
تسقط عن أمك الرؤومِ،
ولا يضجُّ نبعٌ هنا،
ولا زَهَرٌ يذوي،
ولا نأمةٌ،
ولا مطرُ

كنا حسبْنا الهواء يعتذرُ
فكيف لم يسمع الهواءُ بنا ؟
وكيف لم ينحنِ الزمانُ هنا ؟
كأنّ سوراً يقام في جسدي،
يشقّني،
والدماء تركض في وادٍ ولا زرْعَ.
ليس من أحدٍ يرى،
ألا ترون الحرامَ يا بَشَرُ؟
أهكذا ينتهي الترابُ إلى لا سامعٍ؟
ليس في المدى خَبَرُ
وتحت حدّ المنشار قلبُ أبي
وبين سوق النسيان والهربِ
يئنُّ تحت الحديدة الشجرُ

غزة – الأربعاء ٢٠٠٤/٤/٧

٤- الأخ الكبير

إلى مظفر

كان الأخ الكبير حاطبا
حاطبَ ليلْ
كان الأخ الكبير صاخباً
نذيرَ وَيْلْ
كان الأخ الكبير لا أخٌ لَهُ -

يحنو على عصابةٍ من ورق الكلامْ
يهمز خيلاً تشخب الدماء من أنوفها ،
إلى أمامٍ ما له أمامْ
كان الأخ الكبير ساخطاً على الضياء والظلامْ
تُزَمجر الوديانُ في صراخه،
فتقفز الفهود من حنجرة الَرعد،
إلى تَرقُوَة الفريسة الأولى،
ويشتدّ به الهياجُ،
- هل فريسة ثانية تكفي؟
- أهذا غضبٌ أم حطبٌ معذَّبٌ في السيْلْ؟
- أتلك حربٌ؟
أم دم يختضُّ في العروق،
فيما لا نرى من أثر للخيَلْ؟
- ولا نرى من سببِ
للغضبِ
لكنّ روح النار، وهي فيهِ، تستثيرُنا ،
- كنا نريد مِثْلَهُ،
وجاءَ،
كانت فضة الدمعة في عينيهِ،
كان صيحةً من ذهبٍ،
وما له من طلب،
- ليس الأخ الكَبير من يطلب شيئاً،
- هل تراه يطلب اعترافا ؟
- بل نحن من نرجوه أن يمنحنا اعترافا
فهو له مملكة من ظلِّه،
وهو على مبعدةٍ من ظَلِّهِ،

يعدو ويعدو خلفه، وظلُّهُ معافى

ونحن أينْ؟
عصابة من ورق الكلامِ،
كان الظلُّ يُستَفزُّ،
والنهار يمشئزُّ من رخاوة الأيامِ،
ليست دورُنا من الزجاجِ،
- لم تكن من حجرٍ يوماً -
فهشِّمْ من زجاج الدور ما تريدْ
يجتاحنا السيل فنستزيدْ
ونشرب البحر الذي نجهلُهُ
- ما كان في جوارنا بحرٌ -
وكنا نشتمُ الخبزَ الذي نأكلُهُ
كأنما ينقصنا أخ كبيرٌ،
جاء في الميعاد،
جئنا معه نطلبُ ثارات الحسيْنْ
- ممّن؟
وكان بيننا
فتى، لعله أنا!
هل خاف تلك الحربَ؟
أم لعله لم يبصر الطعانَ والفرسانَ،
داخ واشرأبَّ،
ثم عاد يسأل الركبان عن خفَّيْ حُنيْنْ

لم أقتل الأخَ الكبيرَ،
ليس عندي حربةٌ،
وإن تكنْ فلستُ أستطيعْ
لكنني دخلتُ سوقَ رأسي
لم أشترِ الدخانَ والرعودَ،
بل قايضَتُها بيأسي
سيّان أن أرتدَّ أو أطيعْ
أنا الذي ليس تراني الآن غير نفسي
لم أقتل الأخ الكبيرَ،
بل سألتُ فاكتشفتُ خيبةَ الجميعْ

هل عبرتْ مياهنا في النهر أم أصابها الأسَنْ؟
هل هذه الغضون من خيانة المرآة،
أم جناية الزمنْ؟
لكنني لم أقطع الوادي ولم تقطعْهُ،
لم نغيّر الحكومهْ
وجدَّد الظلُّ على نهارنا هجومهْ
فما الذي فعلتُ؟
هل سلمتُ روحي لرياحي؟

أم سكنتُ ، راضياً، غيابة الوثَنْ؟
وما الذي يجيء من هذا الكلامِ؟
هل هو اعتذاريَ الأخيرْ
عن أي شيء للأخ الكبيرْ؟
أم أنت في علوِّك الحزينِ،
لا تملكُ وقتاً لترى مثلي،
ولم تفطنْ إلى ما كان من خصومهْ؟

غزة – السبت ٢٠٠٤/٥/٨